محاضرة:

المحطات الأساسية لعلم النفس الأدبي عند الغرب

الأستاذ طارق بوحالة

تمهيد:

تعد الأفكار التي جاء بها عالم النفس سيغموند فرويد وتلميذيه البارزيّن أدلر ويونغ بمثابة الأسس النظرية التي شكلت معالم التحليل النفسي، ومدى مقاربته للنصوص الأدبية، وقد بقيت هذه الطروحات مهيمنة إلى وقت قريب، غير إننا نعثر على محاولات جادة لمراجعة هذه الأفكار وتجاوزها وهو ما يجسده كل من الفرنسيين: شارل مورن، وجاك لاكان. لهذا سنحاول في هذه المحاضرة عرض ومناقشة أهم أفكارهما، وأبرزها:

أولا -مفهوم "الأسطورة الشخصيّة للكاتب" عند الفرنسي شارل مورن

يعود اهتمام الناقد الفرنسي "شارل مورن" بالنقد الأدبي إلى ثلاثينيات القرن العشرين، حيث قام بتوظيف في طرحه النقدي مجموعة من مقولات علم النفسي سيغموند فرويد، ليحاول بعد ذلك تغيير مسار النقد، وذلك حين قال أن التحليل النفسي عند فرويد كان منصبا في المقام الأول على تتبع حياة الكاتب، و(هذا لا يعني أن فرويد قد أغفل النص الأدبي).

وقد اهتم "شارل مورن" بالنص الأدبي وجعل حياة المبدعين في فهم نصوصهم الإبداعيّة. فقد وجد أنه من الضروري عزل ودراسة مجموعة من البنيات النصية التي تتضمن تعبيرا على الشخصية اللاواعية للكاتب. لهذا تجاوز المقولات الفرويدية في التحليل النفسي. ومن المقولات التي اشتغل عليها "شارل مورن" الأسطورة الشخصيّة للكاتب.

يرى "شارل مورن" أنه يجب البحث في المؤلفات الإبداعية المتعاقبة لكاتب ما عن جملة من الصور والاستعارات المتكررة والتي تشكل مُجتَمِعة الطابع الخاص والمحدد لتلك الأعمال، وهو ما أطلق عليه مفهوم "الأسطورة الشخصية للكاتب"، ليكون الهدف من البحث النفسي عنده هو تقصي أبرز الملامح التي يمكنها أن تحدد هذه الأسطورة الشخصية وكيفية ظهورها، من

خلال هـذه الاسـتعارات والصـور، وقـد ضـمّن هـذه الرؤيـة في كتابـه **"من الاستعارات الملحة إلى الأسطورة الشخصية"** الصادر بتاريخ 1962**.**

ويعتقد شارل موورن أن الكاتب يعبر في عدد لا حصر له من الرمـوز عن فكرة ثابتـة أو عقـدة راسـخة، حيث تكـون هـذه الفكـرة أحيانـا خياليـة أو واقعية يدرسـها الناقـد النفسـاني في بدايـة تحليلاتـه باعتبارهـا فرضـية قابلـة للتطوير في سياق العمـل النقـدي، ثم يقـوم بتحليـل تمـاثلي للنصـوص وفـق أسـلوب الارتـداد والتقـدم آخـذا بعين الاعتبـار جملـة من المسـلمات منهـا، اللاشعور وأهمية الطفولة ودورها في تشكيل اتجاهـات الشـخص البـالغ وآثـار بعض الوقـائع الراسـخة في الـذاكرة وفي اللاوعي، ووجـود الغرائـز المهيمنـة والنزوات المتسلطة، هذه العناصر زئبقية، وهي تغيب وتظهر في النص.

وقـد درس شـارل مـورون نمـاذج أدبيـة من أجـل أن يثبت نظريتـه عن الأسطورة الشخصيّة، وذلك من خلال أعمال كـل من راسـين وبودلـير وبـول فـاليري وكلهم كتـاب فرنسـيون، حيث طبـق على نصوصـهم تقنيـات منهجـه النقـدي النفسـي مركـزا على الحـوار البـاطني والنزعـة المتسـلطة للأحلام والأفكار ذات الإيقاع الهذياني المنتشرة في نصوصهم الأدبية.

ثانيا: علم النفس الأدبي عند جاك لاكان (1901-1981):

أعاد الناقد والمحلل النفساني الفرنسي جاك لاكان قراءة جهود فرويـد وطروحاته في التحليل النفسي وذلـك من خلال بحثـه في مقولاتـه المركزيـة الممثلة في اللاشعور والأحلام والجنس والذات الإنسانية، وقد رأى فيها طرحا نقديا مهما لم يلتفت إليه من سبقه.

والجديـد في بحـوث جـاك لاكـان أنـه يمـزج بين المعطيّـات الأساسـيّة للسانيات السوسـيرية (نسـبة إلى سوسـير) خاصـة مفـاهيم "اللغـة والكلام" و"الآنية والزمنية" والـدال و"المـدلول، وبين المفهـوم المركـزي في التحليـل النفسي وهو "اللاوعي"، ليقدم بعد ذلـك مفهومـا جديـدا وهـو "لاوعي اللغـة، فاللاوعي عنده عبارة عن بنية رمزية. وليس مجرد حالة فردية لاشعورية.

والحاصـل أنـه يجمـع في تحليلـه النفسـي بين مقاربـات عديـدة، وهي اللسانيات والتحليل النفسي والفلسفة وعلوم الإنسان وغيرها. ومن المفاهيم الشائعة في النقد النفسي عند لاكان:

1-اللاشعور بنيّة لغوية:

يُجمع المحللون النفسيون على ضرورة عنصر اللغة في التحليل النفسي للأدب، فهي المفتاح الأساسي الذي نتمكن بواسطتها معرفة أنواع الصراع المحتدم القائم بين الفرد والمجتمع، ورأيهم في ذلك أن اللغة سابقة للفرد وذات وسلطة عليه.

لهذا فقد اهتم جاك لاكان في بحوثه الكثيرة باللغة، إذ يعتقد أن "اللاشعور" (اللاوعي) من صنيع الآخر، وليس من تشكّلات الذات حصرا؛ بمعنى أنّنا نخضع منذ مرحلة الطفولة إلى ضغط الأخر بواسطة اللغة أولا والمبادئ والضوابط ثانيا، وليس اللاشعور سوى ما يتلقاه الفرد داخل الأسرة والمجتمع من خطابات تتم عن طريق اللغة.

وينشأ الصراع عادة بين "الأنا الأعلى" وهو الذي يمارس سلطة الرقيب، ومهمته هي الإشراف على ضبط البنيّة النفسيّة للفرد، في مقابل الأنا (الذات) التي هي بمثابة مستودع تتشكل داخله الصور التي ننسجه حول ذواتنا، هذه الصور التي قد تتحول مع مرور الزمن إلى أوهام، والتي بدورها تشكل مستودع نقتات منه.

2-مرحلة المرآة:

يعتقد جاك لاكان أن مرحلة المرآة تعتبر النقطة الأولى التي تسمح للإنسان بأن يتعرف على ذاته من خلال الأخر، والآخر هو تلك الصورة التي نكتشف وجودها ونحاول المطابقة بينها وبين الذات. ومرحلة المرآة عنده هي أن مفاهيمنا في الأصل ما هي إلا انعكاسات خيالية تظهر عندنا على أنها حقيقة، حيث نحاول الدفاع عنها أمام العالم الواقعي.

ويقدم لاكان مثالا عن مرحلة المرآة بحالة الطفل في سن بين ستة أشهر وثمانيّة عشر شهرا، وهو الذي يكتشف صورته في المرآة محققا لذة أثناء ذلك، خاصة وهو لم يحقق استقلاليته النهائية عن رعاية الأم. والأنا التي يكتشفها الطفل من خلال الرؤية في المرآة هي أنا وهميّة ومثالية. ومن هذه الفكرة يتحدث جاك لاكان عن البعد التخييلي المساهم في بناء الذات الواقعية أو في الأعمال الأدبية. وقد فتح هذا الطرح اللاكاني الجديد القراءة النقدية على تأويل الأحلام وتفسيرها وإدراكها على أنها مجموعة لغوية تتشكل من علامات وتجريدات واسعة.

ويرى لاكان: " أن الصورة في المرآة تتيح للذات أن تقول: هذا جسدي وتؤمن بالتالي ملكيتها الوهمية على مكان وزمان كانا فيما مضى يفلتان منها، وإنما الهوية بالمعنى الفلسفي والقانوني، بالمعنى الذي يكون فيه اسم الذات الخاص مكتوبا على بطاقة بجانب الصورة التي تسمح بالتعرف عليه، أما أن

تكون الهوية مستلبة حسب قول لاكان فهذا ما يقلب معنى الجنـون: ذلـك أن المجنون هو الذي يقول بالأحرى بأنه آخـر غـير ذاتـه." وتشـير مرحلـة المـرآة أيضا إلى أنّ مفاهيمنـا في الأصـل مـا هي إلّا تمظهـرات وانعكاسـات خياليـة، نحاول الدفاع عنها أمام العالم الفيزيقي (الخارجي).

المراجع:

1-حميد لحميداني: الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مطبعة أنفو، المغـرب، ط 3، 2014.

2-محمد سالم سـعد اللـه: الأسـس الفلسـفية لنقـد مـا بعـد النيويـة، دار الحوار، سوريا، ط 1، 2007.

3-جاك لاكان: اللغـة: الخيـالي والرمـزي، اشـراف مصـطفى المسـناوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2006